الخطاب الروائي في ضوء الدراسات الحديثة

شكشاك فاطمة
جامعة العقيد الحاج لخضر-باتنة
chekchakfatima@gmail.com

الملخص:

يعتبر الخطاب من بين المواضيع التي اهتمت بها الدراسات الأكاديمية في العصر الحديث، وقد نال حظا وافرا من الدراسات النقدية المختلفة التي حاولت تفسير ماهيته ووجوده في إطار علاقة الذات الفاعلة بالوجود الإنساني وامتدت الدراسات إلى عمق التاريخ في محاولة الإجابة عن التساؤلات التي أحاطت به من وجهات نظر مختلفة.

الكلمات المفتاحية: الخطاب، الخطاب الروائي ، المتلقي ، القارئ، الاستجابة الجمالية.

الموضوع:

لم يكتسب الخطاب الأدبي مشروعيته التاريخية والمعرفية إلا في ظل النظريات المعاصرة في الأدب والنقد، تلك النظريات التي اكتشفت في فضاءاته النصية المتنوعة من الأصالة والعمق والخصوبة والثراء ما أغراها بالمزيد من التوغل في عوالم الإبداع، وفي ضوء هذه المعطيات الجديدة اتسعت دائرة الاهتمام بالخطاب الأدبي لتتجاوز الدراسات الأدبية والنقدية إلى حقول معرفية متعددة كعلم النفس، علم الاجتماع، الأنثروبولوجيا، ليتبوأ الصدارة وسط الزخم الهائل من الإبداعات في العصر الحالي.

ومن بين الخطابات الأدبية التي حظيت بالدراسات النظرية والتطبيقية نجد جنس الرواية التي ساهمت في تحديد ملامحها والكشف عن حدودها وخصائصها،

وجعل نصوصها تنفتح على عديد من التأويلات بدءا بالعنوان إلى آخر النص لتعطي رؤية جديدة لعوالم الكتابة التي تتغير بين الفينة والأخرى.

يعتبر الخطاب الروائي فصلا مميزا لنوع من أنواع الخطاب، وهو نوع يعنى بمقاييس تميزه، والتعرف عن هذه المقاييس يعني استخراج بنيته وأدبيته، أي استنتاج جملة المعايير التي تجعله خطابا روائيا بذاته على اعتبار أنها عالم غير محدود من المتخيل والحقيقي، الواقعي والغير الواقعي، وقد ارتبط ظهورها باختلاف أنماط الحكي «حيث تعد الرواية من بين الأشكال التعبيرية التي تحتمل بنياتها تساكن الواقع واللاواقع وتقاطع الحقيقي والخيالي»[i] ومن هنا

كانت الرواية رصد لتجارب الإنسان بعدما كسرت الأطر والقوالب المحددة لشكلها المعتاد بأساليب جديدة تتماشى وتغير الواقع والحياة « ولقد تردد مصطلح البنيوية كثيرا في علم السرديات Narratologie وكثر الاهتمام بها وتزايد وذلك منذ أن اتكأت البحوث الحديثة على مفهوم البنية structure، واكتشف بها التنظيم الداخلي للوحدات وطبيعة علاقتها وتفاعلاتها»[ii] وعليه كانت الرواية تتحسس مشاكل الفرد والجماعة بالتحليل والتركيب في كتابة جديدة أخضعت هذه الأخيرة بدورها إلى التجريب، لإبراز التعدد في مستويات بناء الخطاب الأدبي بعدما فقد الزمان والمكان سيرورتهما المعتادة وأصبح يسبح في الفضاء الروائي اللامحدود والمتسع لكل المعطيات المباحة سواء أكانت تقليدية أو غير ذلك، وكل هذا لإيصال الخطاب الروائي إلى فضائه الإبداعي ليصبح ترجمة لنص جديد،أو بمعنى اخر يعطي قراءة و رؤية للعالم من وجهة نظره .

كانت الرواية في نهضتها الأولى تعتمد على الواقعية كمذهب أساسي وكان الحوار فيها هو الأساس في استنهاض الخطاب المباشر لما يراد به لأبناء المجتمع باعتبارها أكثر الأجناس الأدبية قدرة على تقديم الملامح الأساسية للحياة المعاصرة بالأخص، بل تقوم بتشريح الظاهرة ونقدها في كثير من الأحيان باستعمال لغة مميزة « فاللغة في الخطاب لا تعدو بنية اعتباطية بل نشاطا لأفراد مندرجين في سياقات معينة، وبما انه يفترض تمفصل اللغة مع معايير غير لغوية، فان الخطاب لا يمكن أن يكون موضوع تناول لساني صرف»[iii] وعليه يجب النظر إلى الخطاب على انه بنية شمولية لا تقبل التجزئة، فوحداته غير معزولة بل مترابطة فيما بينها؛ ونقصد بشمولية المعالجة بأن يضع المتعامل مع الخطاب في الحسبان أن شريكه أو قارئ نصه كالبناء المحكم، و أن لكل جزئية من جزئياته مهما صغرت دور ينبغي التفكير فيه، ويعتبر التذوق الأدبي هو الأساس في القراءة لان التسلح به هو الذي يعطي للكاتب أو المبدع أفكارا غير محدودة مفتوحة على مجالات لا متناهية من المعطيات الموجهة لمجموعة من الأفراد لديهم رؤية مختلفة و متعددة هاته الرؤية التي بدورها أن تعطي نص جديد من خلال رصد أقصى طاقاته؛ لأن هذا القارئ أو الحكم لا بد أن يكون حصيف يحتكم إلى السلطة العليا أو التذوق حين قراءته للنص و الاحتكام إليها في تقييم كل الأعمال الأدبية أو كما يقول "ريفاتير" : « النص يقول أشياء ويقصد أشياء أخرى»[iv] وعليه كانت الدراسة النقدية تهتم بالبناء الداخلي للنص الروائي وكيفية احتوائها للحكاية والدلالة عليها وتوسيع البعد البنيوي من خلال التأكيد على العلاقة الكائنة بين البنية والمرجع والاهتمام بالمؤلف وبعد التلقي وجماليات القراءة.

لقد عرف الخطاب الروائي منذ بداية ظهوره عدة تغيرات وتحولات صاغتها انجازات فردية كانت نتيجة لمجموعة من المتغيرات في طبيعة التعاطي مع الخطاب واستجابة لدوافع متغيرة وجديدة وحتى طارئة تتماشى وكل عصر تستوعب من المفاهيم دلالات حضارية من خلال القراءة الإنتاجية التي هي في مقابل الكتابة بوصفها آلية

إنتاجية أيضا، لأنها من فعل المتلقي للوصول بهذه القراءة إلى مكمن الجمالية فيها، وباعتبار أن الخطاب الروائي يتحدد أساسا في لغة الراوي وحواراته وتعدد مستويات الحكي فان صورة الأنا والآخر من خلال المعطى الاجتماعي بالأخص وما يوجد فيه من وقائع وأحداث هي التي تصنع شكل الحياة ومضمونها المعاش فجعل الكتاب بذلك بناء الرواية يعتمد على مجموعة من الأساسيات، كالشخصيات، الزمان، والمكان، السرد وتنظيم علاقتها مع غيرها وذلك لأن «النص بنية متلاحمة العناصر، وهي بنية كبيرة تحتوي على بنى متفاوتة من حيث الطول، وهناك وحدات صغرى كالبنية الصوتية والصرفية وهناك وحدات اكبر كالبنية التركيبية ووحدات كبرى مثل البنية السردية أو الوصفية أو الحوارية»[v] وعليه فالنص الواحد يتقاطع مع مجموعة من النصوص لا تعدو ولا تحصى، وهو بذلك يستوعبها إراديا وغير إراديا ومن ثم «فان هذا التصور ينفي فكرة المعنى الأحادي للنص، بينما يتكيف هنا المعنى بحسب مفسره (قارئه) لأن النص كيان ملموس وحي يعيش حياته عبر قوانينه الخاصة لكن يحمل في هذه القوانين خصائص الحياة الاجتماعية التي يعيش في إطارها ويبدع ويتلقى»[vi].

وليس الخطاب سوى الطريقة التي تقدم بها المادة الحكائية في الرواية، فقد تكون المادة المُقدمة واحدة ولكن الخطاب يتغير فيها ومختلف بحسب كل روائي إذ انه يعتمد في كتاباته منهجا محددا وموقفا محددا أيضا أو بمعنى أخر تختلف القضية الواحدة بحسب اختلاف وجهات النظر، فالراوي عن طريق الحوار الصامت بذوات الآخرين يتم فهم تطلعاته الخارجية ومراميها وكما جاء عند سعد يقطين «الخطاب الروائي هو الطريقة التي تقدم بها المادة الحكائية في الرواية وقد تكون هذه المادة الحكائية واحدة لكن ما يتغير هو الخطاب في محاولة كتابتها ونظمها، فلو أعطينا لمجموعة من الكتاب الروائيين مادة قابلة لان تحكى وحددنا لها سلفا شخصياتها وأحداثها المركزية وزمانها وفضائها لوجدناهم يقدمون لنا خطابات تختلف باختلاف اتجاهاتهم ومواقفهم، وان كانت القصة التي يعالجونها واحدة»[vii] فالمادة الثابتة عنده إنما تتمثل في نظريات السرد وهي "الحدث أو الفعل" "الشخصية أو الفاعل" "الزمان والمكان"أو "الفضاء" –بأوسع معانيه– والتي بها يتحقق العمل الروائي، لأن السرد يعد وسيلة فعالة في نسج وإعادة تكييف الأحداث الواقعية والمتخيلة وتوزيعها بين ثنايا النص الروائي «والسرد بمفهومه التقليدي هو عرض لمجموعة من الأحداث سواء أكانت واقعية أو من نسج الخيال بواسطة اللغة؛ وهو انجاز اللغة في شريط محكي يعالج أحداثا خيالية في زمان معين، وحيز محدد تنهض بتمثيله شخصيات يصمم هندستها مؤلف أدبي»[viii] والسرد يعد وسيلة جد فعالة في نسج وإعادة تكييف الأحداث الواقعية والمتخيلة وتوزيعها بين ثنايا النص الروائي؛ فبنية الشخصية مثلا تدرس ضمنها بنية الحدث الروائي لان الشخصية الروائية هي التي تنجز الحدث وان الحدث يقع عليها، وهي تعيش في مكان مادي أو ملموس بتجلياته الخاصة تتخذ منه مواقف محددة، و أن المكان هو الذي يجعل الشخصية ممكنة الوجود بالفعل والقرار المرتبطين بالزمان الذي يفسر من خلاله هاته

الشخصية في إطارها الاجتماعي أو التاريخي أو غيره لتتشكل في إطارها وحدة موضوعية بنائية مرتبطة ببعضها البعض وفق نسق متكامل فيما بينهما و الذي يظهر جليا من خلال عملية الحكي أو السرد، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على انه نسق بنائي دلائلي يهتم بالبنية الداخلية أو المضمرة في الرواية من دون أن يتناسى البنية الخارجية لها أو بالأحرى محاولة الراوي الإحاطة ببناء البنية الروائية وكيفية احتوائها للحكاية والدلالة عليها لتعطي للموضوع البنية الكاملة عند تفسير الظاهرة و قراءتها «وما دراسة الوحدات السردية لنص روائي ما إلا دراسته للبنى المكونة للبنية الكبرى أي للكل المتسق مع الذي يمثل بنية الرواية حيث تقوم الرواية على ركيزتين هما الرواية المتمثلة بتوافر العناصر الفنية من حدث وشخصية وزمان ومكان ومن طريقة قص لنسج تلك العناصر وتقديمها بصورة فنية وعلى الركيزة الأولى يطلق عليه متن الرواية وعلى الثانية أسلوب السرد وما البناء الفني للرواية إلا كيفية بناء تلك العناصر والعلاقات المتداخلة فيما بينها بوساطة السرد بأساليبه ووسائله من وصف وحوار»[ix].لتتشعب الرؤى في محاولة إيصال الرسالة المحكية.

لقد خضع الخطاب الروائي إلى دراسات نقدية مختلفة تحاول تفسير ماهيته ووجوده وعلاقته بالذات القائمة بالفعل أو الوجود الإنساني، وتشعبت الدراسات في هذا المجال فشملت الماضي المحكي بلم تراثه أو المادة الشعبية فيه حين الإجابة عن التساؤلات التي أحاطت بهذا الموضوع من وجهات نظر مختلفة كما شملت الحاضر الملموس ترجمة منه للواقع المحكي ولتطلعات الفرد المستقبلية وعليه يكون معنى القراءة عند المتلقي بالنسبة للخطاب هو «ذلك البناء نفسه وقد أصبح موضوعا لعملية إعادة البناء، أي نصا للقراءة، وكيفما كانت درجة وعي القارئ بما يفعل فانه ولا بد أن يمارس في ذلك النص ما يمارسه صاحب الخطاب عند بناء خطابه فهو يقوم بعملية إبراز أشياء والسكوت عن أشياء اخرى و تقديم أشياء وتأخير أشياء لغرض معين فيسهم القارئ هكذا في إنتاج وجهة النظر التي تختلف من فرد لاخر لتكون قراءة المتلقي الواحد إحدى وجهات النظر التي يحملها الخطاب صراحة أو ضمنا، والقارئ عندما يسهم في إنتاج وجهة نظر معينة من الخطاب يستعمل هو الأخر أدوات من عنده هي في جملتها وجهة نظر أو جزء منها عناصر صالحة لتكوينها ومن هنا يأتي اختلاف القراءات وتعدد مستوياتها»[x] وقد تعددت الأبعاد الجمالية للخطاب الروائي بتكاثف عناصره المختلفة المتعددة الرؤى، المتفتحة الأفاق و المندرجة ضمن أسرار غير معلنة، هذه الأبعاد الجمالية التي تتحرك وفق طاقات داخلية مختلفة ودولاب يسيره كاتب ما تتحكم فيه أمور مختلفة داخلية (شعور، اللاشعور) أو خارجية (المجتمع، المناخ، السياسة ،الاقتصاد، التاريخ ...الخ) من هنا يتفجر هذا الخطاب النوعي ليكشف عن مناطق مجهولة فيه نابضة بالحياة، نابعة من النفس البشرية ليعبر عن الرغبات المكنونة فيها والتي يسطرها المؤلف و ما يترصده القارئ المتمكن من خلال رؤية غير محدودة لأفق التوقع إذ كلما كان قريبا من سياقات إنتاج النص معايشا لها كان فهمه وتفاعله اقرب للرؤية الحقيقة

"ومن هنا حدد جاكسون القواعد التي يقوم عليها الخطاب «من اجل الوصول إلى الإخبار والإقناع ومن ثم الاعتماد على الوظيفة التأثيرية والجمالية انطلاقا من الخصائص اللغوية المشكلة للخطاب والدلالات المتشابكة والمستويات المتعددة المكونة له، ولهذا تحددت وظائف أخرى للخطاب الأدبي حسب تحديد جاكبسون، كالوظيفة الانفعالية أو التعبيرية والتي تكشف عن خبايا نفس المبدع والتعبير عن عواطفه وخلجات نفسه ورغبته في التأثير في المتلقي، أما الوظيفة الابلاغية أو الايصالية فتهدف إلى إفهام المتلقي مضمون الرسالة التي بثها المبدع وذلك عن طريق مضمون الرسالة كيف يتأثر بها، أما الوظيفة الإنشائية (الشعرية) فتمثل جوهر الرسالة التي يحملها الخطاب الأدبي لأنه الهدف المتوخى أما الوظيفة المرجعية فتحيل الرسالة إلى شخص لتفكيك عناصرها وتوضح الوظيفة المعجمية الشفرة المشتركة بين المبدع المتلقي وتسعى لضمان وجودها بحيث يبقى مفهومه بين طرفي الخطاب أما الوظيفة الإنتباهية فتحافظ على الصلة كما تظل قائمة بين طرفي الخطاب أثناء عملية التخاطب »[xi].

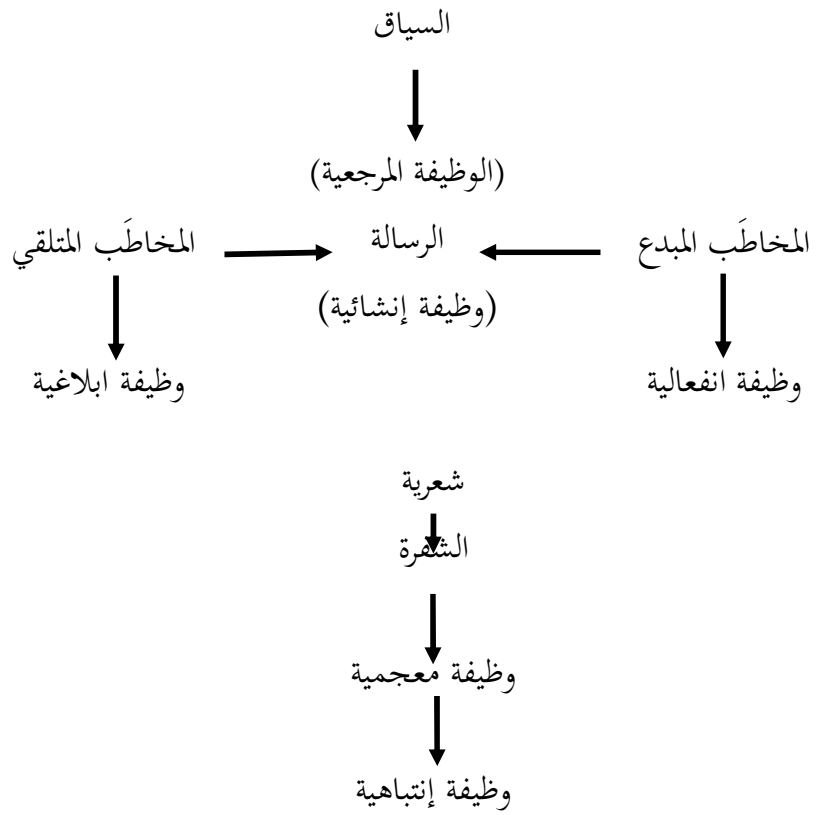

و عليه لا يمكن أن تقوم عملية القراءة إلا من خلال تجزئة العناصر النصية أو فصلها عن بعضها البعض لان التناقض والصراع هما اللذان يجعلان منها أدبا إذ تقسم نظريات القراءة إلى فرعين أساسين: النظريات التي تتعامل مع النصوص الأدبية من الداخل ويطلق عليها نظريات الاستجابة الجمالية والتي تتعامل مع النصوص الأدبية من الخارج وتدخل ضمن ما يسمى جماليات التلقي ويجمع بينها التصور المنهجي الموحد لمفهوم الأدبية على اعتباره حقلا سيميائيا له قواعده الخاصة المميزة له.

تعتبر عملية رصد الخطاب الروائي عملية متشعبة الاختصاصات وتتطلب جهود كثيرة؛ فالخطاب بحد ذاته يندرج ضمن معطى اجتماعي سوسيولوجي سيميائي في آن واحد، وأيا يكن الأمر فان ما يمكن ملاحظته هو إن سمة الخطاب الروائي بصيغته وطبيعته تجعله مرتبطا ارتباطا وثيقا بين فكرة النقد السوسيولوجي والسيميائي ويوضح المقاربة بينهما في إطار المبدأ البديهي القائل بان كل ما هو سيميائي يحمل الطابع الاجتماعي لان الجماعة هي التي تعطيه هذه الصفة التي تجمع بين ما هو بنيوي ودلائلي باعتبار أن الفرد اجتماعي بطبعه.

إن الأنساق الإيديولوجية التي تصورها الرواية عادة لا معنى لها إلا ضمن الصراع والتوتر والتناقض الموجود فيما بينها داخل الفضاء النصي و انه لا يمكن للقارئ ان يتناول كل نسق بمعزل عن البنى الأخرى لانه سيعود بالضرورة إلى واقع خارج النص ومن هنا يكون أمام تفسير خطاب غير فعال إذ فعالية النسق تكمن في فعل التعارض مع النسق الإيديولوجي للوصول إلى أقصى طاقاته.وبهذا التصور ينطلق الكاتب من ميدان الكتابة الخاصة بالمحيط الاجتماعي إلى الكتابة بحد ذاتها بحثا عن موقع للنص داخل الحياة الاجتماعية وليس البحث عن موقف النص من الحياة الاجتماعية كما كان شائعا في المناهج السوسيولوجية التقليدية ومن هنا يكون معنى النص في إطار التقاطعات النصية بحد ذاتها عن طريق تحديد المقاربة بين الملفوظات لتبيين ما هو أدبي من غيره، والمسلمة تقول بان الأدبي يبينه الغير أدبي والعكس صحيح وان الأخير إذا وظف لغرض جمالي يمكن أن يتخذ صفة الأدبية.

إن النص صياغة لحوار المؤلف مع المتلقين ضمن إطار فضائي معرفي تشتغل في دائرته عناصر ثقافية واجتماعية متفاعلة فيما بينها في إطار رؤية إيديولوجية محددة، وفي إطار استجابة جمالية لجماعة بعينها لمؤلف أو مبدع يعطي معنى ذاتيا لشكل اجتماعي، أي انه جزء ضمن الكل فخطابه ضمن خطاب الجماعة وعليه فهو طابع معياري يحدد الأبعاد الزمكانية للنص.

لقد شهدت الدراسات النقدية في القرن العشرين الكثير من الاختلاف في وجهات النظر، هاته الدراسات التي كانت رافضة لفكرة تبني المنهج الواحد ومؤسسة لتعدد المناهج؛ فاختلف الدارسون حول منهج تحليل النصوص فذهبوا بذلك إلى مذاهب عدة، حتى أن بعض النقاد انكبوا على متابعة الإثارة الجمالية المكنونة في

النص وبيانها من خلال تحديد مقاصد المبدع (المؤلف) والوصول إلى أقصى طاقات النص من خلال قراءته قراءة متمعنة في المعاني المفتوحة والممكنة لجملة من الدلالات والإشارات وغيرها، وهنا تأتي وظيفة الناقد الفذ المتمكن بالبيان والتحليل باستعماله لمجموعة من الوسائل والآليات المشخصة والمحددة للأمور التي ساهمت في بناء النص هذا الأخير الذي يكتسي معناه من الكلمة ودلالاتها (معنى المعنى) لتعطينا في النهاية قراءة جديدة وبالتالي نص جديد أو ترجمة لنص.

الهوامش:

(i) د الداهي محمد، سيميائية السرد، بحث في الوجود السنمائي المتجانس، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة،ط1، 2009، ص286.

(ii) صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، الشركة المصرية العالمية للنشر،لونجمان، ط1، 1996، ص 168.

(iii) سعد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، الزمن، السرد، التبئير، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1997،1،ص 22

(iv) ريفاتير ميشال، دلائليات الشعر، ترجمة محمد معتصم، منشورات كلية الآداب، الرباط،م ع، 1997، ص 39

(v) ك .م. نيوتن، نظرية الأدب في القرن العشرين، ترجمة عيسى العاكوب، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، م ط، 1988، ص 143.

(vi) زيما بيار، النقد الاجتماعي، تر. عيده لطفي، دار الفكر للدراسات، القاهرة ،م ط ، 1991، ص 08.

(vii) سعد يقطين، تحليل الخطاب الأدبي، مرجع سابق ،ص 07.

(viii) عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، المجلس الوطني للثقافة والاداب،الكويت، م ط، 1998، ص 256.

(ix) عبد الله ابراهيم، المتخيل السردي (مقاربات نقدية في التناص والرؤى الدلالية)، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1990، ص 115.

(x) محمد عبد الجابري، الخطاب العربي المعاصر، دراسة نقدية تحليلية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، م ع، 1982، ص 17

(xi) عبد الرزاق الورناني، مفهوم الاسلوبية عند جاكبسون، مجلة القلم، تونس، العدد 10، 1977، ص 13،14.